نفحات من سورة الدخان: الكتاب العظيم

كتبه محمد الصغير الثلاثاء ٠١ محرم ١٤٤٣

نبدأ على بركة الله سلسلة في تدبر سورة الدخان، نقف مع بعض معانيها، ونسترحم ببعض رحماتها، ونتعظ ببعض عظاتها.

ننهل من معين حكمتها، ونستنير بنورها الساطع ليُنير دربنا وسط هذا الظلام الحالك الذي يتخبط فيه العالم.

ونبدأ مع بداية السورة حيث قال ربنا عز وجل:

﴿ حم ۝ وَالكِتابِ المُبينِ ۝ إِنّا أَنزَلناهُ في لَيلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنّا كُنّا مُنذِرينَ ۝ فيها يُفرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكيمٍ ۝ أَمرًا مِن عِندِنا إِنّا كُنّا مُرسِلينَ ۝ رَحمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ ۝ رَبِّ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَما بَينَهُما إِن كُنتُم موقِنينَ ۝ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ يُحيي وَيُميتُ رَبُّكُم وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلينَ ۝ بَل هُم في شَكٍّ يَلعَبونَ ﴾

الدخان: ١-٩

فقد تحدثت هذه الآيات عن موضوع طالما تكرر الحديث عنه في فواتح السور، وخصوصاً المكية، إنه موضوع الوحي نفسه، الرسالة نفسها، فمن يتأمل القرآن لا شك أنه سيلاحظ تركيز رب العالمين على الحديث عن الكتاب، لأن الإيمان بالكتاب هو الفيصل بين الإيمان، والكفر، ولنبدأ مع الآيات

يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَالكِتابِ المُبينِ ﴾

الدخان: ٢

تبدأ السورة بعد الحروف "حم" بواو القسم، ثم القسم بالكتاب، ثم الوصف بالمبين للكتاب، فماذا نستنتج من ذلك؟

أستنتج أمرين وهما :

أولا عظمة هذا الكتاب حيث أقسم الله به العظيم جل جلاله.

ثانيا صفة المبين وهي على وزن مفعل، ثم كسرت فاؤه لمناسبة الياء التي بعدها، ومفعل تصاغ من الفعل الزائد على الثلاثي للدلالة على المصدر واسم الفاعل واسم المفعول، فدل ذلك أن قوله: المبين تدل على كونه بيان، وكونه مبين في نفسه، ومبين لغيره.

إن صفة المبين تكرر وصف الوحي بها كثيرا ليؤكد على معنى في غاية الأهمية وهو:

أنه لا حاجة لشيء بعد الوحي، فهو مبين في نفسه، مبين لغيره، بيان لكل شيء.

ففيما البحث عن غيره، وقد حصلت به الكفاية التامة وزيادة؟!

قُتل الإنسان ما أكفره، يأتيه الكتاب المبين ثم يعرض عنه.

يقول ربنا عز وجل:

‹ إِنّا أَنزَلناهُ في لَيلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنّا كُنّا مُنذِرينَ ›

الدخان: ٣

يتواصل تعظيم هذا الكتاب المبين، فربنا عز وجل يتحدث عنه بصيغة العظمة، والتوكيد:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ

فإذا نظرنا لكلمة ربنا السابقة، نجده سبحانه استخدم حرف التوكيد "إنّ" وأضغمها مع نون العظمة، ليؤكد بذلك أمرين كلاهما دليل على عظمة الوحي:

عظمة هذا الكتاب العظيم

كونه من عند الله سبحانه هو من أنزله سبحانه.

إن كون هذا الكتاب من عند الله سبحانه وتعالى تجعل الإنسان يرتجف من عظمته، فهو ليس كتاب عالم، ولا كتاب نبي، ولا كتاب ملك، إنه كتاب الله، أنزله الله سبحانه، فهل نحن مدركين لعظمة هذا الأمر؟!

هل نحن مدركين فعلا أننا حين نقرأ القرآن، أننا نقرأ كلام الله سبحانه، قيوم السماوات والأرض، ومن فيهن؟

تأمل ذلك، وفكر فيه، فهو تشريف ما بعده تشريف، أن أذن الله لك أن تقرأ كلامه، وخاطبك به.

إن هذا الكتاب العظيم الذي أنزل في ليلة مباركة, لابد أنه أنزل لغاية عظيمة تناسب عظمته, فما هي؟

نعم إنها غاية عظيمة جداً عبر الله عنها بقوله:

إِنّا كُنّا مُنذِرينَ

هنا أيضا يستخدم الله نفس أسلوب التوكيد, فاستخدم إن الدالة على التوكيد, واستخدم صيغة العظمة المتمثلة في التحدث بصيغة الجمع, ويزيد على ما سبق بمؤكدين

الأول التعبير ب: "كان" الدالة على الديمومة, وهي من أقوى أساليب التوكيد, كثيرا ما ترد عند التوكيد على أسماء الله الحسنى مثل قوله:

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الكافِرينَ وَالمُنافِقينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَليمًا حَكيمًا ﴾

الأحزاب: ١

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أَن تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهلِها وَإِذا حَكَمتُم بَينَ النّاسِ أَن تَحكُموا بِالعَدلِ إِنَّ اللهَ نِعِمّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كانَ سَميعًا بَصيرًا ﴾

النساء: ٥٨

كما أنه عبر بالجملة الاسمية للدلالة على الاستمرار والمداومة أيضاً.

أي أن الله أنزل هذا الكتاب العظيم لغرض عظيم, وهو إنذار الناس أمراً عظيماً جداً, فما هو؟

قبل الحديث عن هذا الأمر العظيم الذي أنزل الله الكتاب العظيم لينذرنا إياه, دعني أسألك ماذا تستفيد عمليا من كل المؤكدات السابقة؟

إن من له ذرة عقل لابد أنه سوف يدرك أن الخطب جلل, فهذا رب العالمين نفسه, وهذا كتابه العظيم, فلابد أنه كما قال:

﴿ إِنَّهُ لَقَولٌ فَصلٌ ۝ وَما هُوَ بِالهَزلِ ﴾

الطارق: ١٣-١٤

وعليه فأن علينا أن ننتبه جيداً, ونصغي عقولنا قبل آذاننا, فالخطب لا توصف عظمته.

قد يتبادر إلى ذهنك أن المقصود بالأمر العظيم الذي أنزل الله الكتاب ليُنذرنا إياه, هو الآخرة, وعذاب النار, لقوله تعالى:

﴿ وَأَنذِرهُم يَومَ الآزِفَةِ إِذِ القُلوبُ لَدَى الحَناجِرِ كاظِمينَ ما لِلظّالِمينَ مِن حَميمٍ وَلا شَفيعٍ يُطاعُ ﴾

غافر: ١٨

ولقوله سبحانه:

﴿ وَأَنذِرهُم يَومَ الحَسرَةِ إِذ قُضِيَ الأَمرُ وَهُم في غَفلَةٍ وَهُم لا يُؤمِنونَ ﴾

مريم: ٣٩

وهذا صحيح فعلا, ولكن ليس هو وحده المقصود, فمن المقصود بالنذارة عذاب عظيم ينزل بالناس في الدنيا قد آن أوانه, سوف تحدثنا عنه السورة فيما يلي من الآيات بعد أن تفرغ من الحديث عن الكتاب العظيم.

يقول ربنا عز وجل

﴿ فيها يُفرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكيمٍ ﴾

الدخان: ٤

تستمر السورة في وصف الكتاب العظيم الذي أنزل في الليلة المباركة, التي يفرق فيها كل أمر حكيم.

هذا يعني أمرين:

- أولا هذا الكتاب حكيم
- ثانيا أنزل بحكمة

فهذا الكتاب حكيم, أي ملئ حكمةً ففيه وضع كل شيء في محله, وقد وصف بهذا الوصف في قوله:

‹ الر تِلكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ ›

يونس: ١

ولا عجب فهو كتاب الحكيم العليم الخبير سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

ثانيا أنزل بحكمة فإنزاله في محله, فالأرض بحاجة إليه ليستقيم حالها, فهو وإن كان يخاطب البشر, إلا أن فيه صلاح الأرض, لأن صلاح الأرض من صلاح الخليفة فيها, وفسادها من فساده, وقد أشار إلى ذلك في قوله:

‹ ظَهَرَ الفَسادُ فِي البَرِّ وَالبَحرِ بِما كَسَبَت أَيدِي النّاسِ لِيُذيقَهُم بَعضَ الَّذي عَمِلوا لَعَلَّهُم يَرجِعونَ ›

الروم: ٤١

قال ربنا عز وجل:

‹ أَمرًا مِن عِندِنا إِنّا كُنّا مُرسِلينَ ›

الدخان: ٥

هنا أيضاً يواصل ربنا عز وجل الحديث عن هذا الكتاب العظيم الذي هو رسالته التي أرسل إلينا, فكرر نسبة الكتاب إليه:

أَمرًا مِن عِندِنا

ففي الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم, أمر سبحانه بإنزال هذا الكتاب العظيم من عنده جل جلاله.

لماذا أنزله؟

فضلا على النذارة التي سبق الحديث عنها, فإنه أمر بإنزله لغاية أخرى وهي:

إِنّا كُنّا مُرسِلينَ

نعم هذا الكتاب العظيم أنزل بأمر الله سبحانه ليرسله إلى الناس كافة ولكن لماذا؟

الجواب نجده في قوله:

‹ رَحمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ ›

الدخان: ٦

نعم لقد أرسله رحمة بنا, هو السميع الذي يسمع شكوانا, العليم بما نحتاجه ويصلح حالنا.

فهذا الكتاب وما حمل من تكاليف تبدو لأول وهلة ثقيلة على النفس, إلا أنها رحمة بالإنسان في حقيقتها الكامنة, فليس كل ما يحب المرء يكون خيراً له, وليس كل ما يكره المرء يكون شراً له.

‹ كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرهٌ لَكُم وَعَسى أَن تَكرَهوا شَيئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُم وَعَسى أَن تُحِبّوا شَيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم وَاللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لا تَعلَمونَ ›

البقرة: ٢١٦

فخلف كل تلك الصعاب والمشاق هناك رحمة الله التي تنزل سكينة وطمأنينة على قلب المؤمن, كما أن هناك الجائزة الأكبر, ألا وهي رضوان الله تعالى.

عند قراءة قوله سبحانه:

مِن رَبِّكَ

يقشعر البدن فهذا الكتاب رحمة من ربنا عز وجل, من ربك أنت تحديداً !!!

كان يمكن أن يستخدم بعض مخلوقاته العظيمة فهو ربها, ولكنه هنا استخدمك أنت تحديداً, لأن هذا الكتاب رحمة بك أنت أولا, فهو أنزل إليك أنت رحمة بك ليصلح حالك, ويمكنك من إقامة مهمتك التي خلقت من أجلها.

نتوقف هنا حتى لا نطيل, وحتى نهضم هذه المعاني الكبيرة, والثقيلة جداً, والتي لا نستوعبها كما ينبغي, نظراً لجهلنا وغفلتنا ولا حول ولاقوة إلا بالله.